



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (١٦) باب التقوى

الشيخ أحمد السيد.

الفهرس

المقدمة:	٣
الآيات:	٣
العناية بالأسماء التي وردت في الوحي:	٤
ثمرات التقوى وفضائلها:	٤
أهمية التقوى:	٤
معنى التقوى وتعريفها:	٥
أساس ما يدخل في التقوى:	٥
الزيادة عن التقوى:	٦
آيات فضل التقوى:	٧
الحديث الأول:	٨
فائدة تربوية من الهدي النبوي:	٩
المقصود بالفقه في هذا الحديث:	١١
الحديث الثاني:	١٢
الدين يعطينا البصيرة:	١٢
لا تنهون في تحذير النبي ﷺ:	١٣
الحديث الثالث:	١٣
الحديث الرابع:	١٤
معنى الحديث:	١٤
الحديث الخامس:	١٤
فائدة حديثية:	١٤

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

أما بعد: نستعين بالله، ونستفتح مجلساً جديداً من (مجالس أنوار السنة المحمدية)، ومن مجالس الاستهداء بالسنة النبوية، وهو المجلس السادس عشر من مجالس التعليق على رياض الصالحين.

وهذه المرة مع باب جديد: وهو الباب السادس من أبواب هذا الكتاب الشريف، وكان الباب الأول: باب الإخلاص، والباب الثاني: التوبة، ثم الصبر، ثم الصدق، ثم المراقبة، وهذا الباب هو باب التقوى، وهذه كما قلتُ مراراً: أبواب شريفة من أهم ما يُبدأ به في العلم، وهي مما يدخل في قول النبي ﷺ أو في فعل النبي ﷺ إذ كان يُعلِّم الصحابة الإيمان، فهذا من تعليم الإيمان.

٦- باب التقوى

قال النووي -رحمه الله-: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه الآية مبيّنة للمراد مِنَ الْأُولَى، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَعْفَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والآيات في الباب كثيرة معلومة.

العناية بالأسماء التي وردت في الوحي:

اسم "التقوى" ورد في الكتاب والسنة كثيراً جداً، وأيُّ اسم من الأسماء الشرعية يَرُدُّ في الكتاب والسنة -خاصة إذا ورد كثيراً- فيجب العناية به، بأن تتعامل مع هذا الاسم بعناية خاصة، وهذه العناية تكون عبر أمور متعددة، منها:

(١) أن تستقري موارد ذكر الاسم في الكتاب والسنة، فتأتي بالآيات والأحاديث التي ذكر فيها هذا الاسم.

(٢) حاول أن تصنف هذه الآيات موضوعياً؛ فمثلاً تجمع الآيات المتعلقة بالتقوى ثم تتفكر فيها، فتأتي بالآيات التي تتحدث عن فضل التقوى وعن ثمة التقوى وعن أهمية التقوى... تجمعها تقول:

ثمرات التقوى وفضائلها:

(١) ﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾

(٢) الآية الثانية: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾

وهكذا تجمع الآيات الأخرى.

أهمية التقوى:

أنت تجيء بالعنوان من خلال الآيات، فعندما تقرأ الآيات يتضح لك أن هذه الآية في أهمية التقوى، فمثلاً: ﴿...وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ...﴾ [النساء: ١٣١]، هذه الآية في بيان أهمية التقوى.

هذه الطريقة في التعامل مع الأسماء الشرعية المتكررة طريقة مهمة جداً في التفقه في الدين.

قل مثل ذلك في اسم "الشكر" مثلاً، وهكذا...

أصل التقوى مأخوذة من الوقاية والالتقاء، أي: المحاذرة، وأن تنتبه من هذا الشيء، فتجعل بينك وبينه وقاية.

فإن قلت لك: اتق السيارات المسرعة؛ أي إذا مشيت في الشارع فتنبه من السيارات المسرعة، واحذر منها، وابتعد عنها؛ خشية أن تؤذيك، فإذا تنبهت وحاذرت من هذه السيارات المسرعة في أثناء مرورك الشارع، وأثناء قطع السير، يُقال لك: أنت حققت التقوى من هذه السيارات؛ لأن التقوى ليس اسمًا مضافًا إضافة خصوصية إلى الله سبحانه وتعالى، فقد يضاف إلى غير الله، فمثلاً جاء في القرآن: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ...﴾ [آل عمران: ١٣١]، وفي الحديث: "فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ" [مسلم: ٢٧٤٢].

إذن هذا الأصل، وهذا معروف، وتستعمله العرب في غير التقوى الشرعية، ومن أشهر الأبيات الشعرية التي يأتي بها العلماء في تعريف التقوى:

سقط الحمــــــــــــــــار ولم تُرد إسقاطه فتناولته واتَّقْتْنَا باليد

وعندما نقول: "اتق الله" فالمقصود بها: ليكن لديك من الخوف من الله، والخشية منه، ما يملكك على أن تبعد عمّا يُسخطه.

هذه خلاصة تعريف التقوى: اتق الله، أي: ابتعد، وخف، واحذر مما يسخط الله سبحانه وتعالى، فتجنبه. ومن هنا تختلف التعريفات التي يذكرها العلماء، فمن أشهر التعريفات للتقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

لمَّا يُقال: "التقوى" معناه أن تجتنب ما يُسخط الله سبحانه وتعالى، فأساس ما يدخل في التقوى هل هو اجتناب المحرمات، أم التنزه عن بعض ما لا يليق؟ هو اجتناب المحرمات، هذا في الأساس.

بينما بعض الألفاظ الشرعية إذا سمعتها فقد تفهم منها ما هو زائد، فمثلاً: هناك فرق بين التقوى والإحسان:

- الإحسان لفظ أعلى من التقوى من جهة أنه يؤدي إلى حُسن العمل، ويدل على حسن العمل: "... أن تعبد الله كأنك تراه..." [البخاري: ٥٠]

- لكن التقوى كأنها إعطاء الأساس، فإن قلت لك: اتق الله يا عبد الرحمن، يعني خَفِ الله، ابتعد عن الحرام، ابتعد عما نُهى، يعني أدِّ الواجبات، يعني لا تتهاون في الصلاة، ولا تقع في الظلم... فهذه "اتق الله"، ولذلك "اتق الله" كثيراً ما تُستعمل وقت الحاجة إلى الزَّجر.

ومن صفات المؤمنين أنهم إذا قيل لهم: "اتقوا الله" يحذرون، يقفون، وبعكسهم المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ...﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ هذه استعملت هنا في سياق: اتق الله، يعني توقف أو احذر.

ولذلك ماذا قالت مريم عليها السلام لما جاءها جبريل وخافت منه؟ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا فستقف، في ظنها أنه جاء يؤذيها، فإن اتقى سيقف، وهذا من أهم ما يتعلق بمفهوم التقوى.

الزيادة عن التقوى:

بعد ذلك هل يمكن أن يُزاد على هذا المفهوم أشياء؟ نعم بحسب سياق الآيات، فمثلاً: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ هذه فيها قدر زائد على مجرد الإتيان بالفرائض، وعلى مجرد الابتعاد عن المحرمات ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ ومن أشهر ما يذكره العلماء فيها قول ابن مسعود في تفسيره ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال: "تقوى الله حق تقاته أن يُطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يكفر"، فصارت التقوى هنا أعلى درجة من مجرد الإتيان بالواجب والابتعاد عن المحرم.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، هنا قال النووي عن هذه الآية: "وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى؛ فقد يقول قائل: "اتقوا الله حق تقاته"؛ أنا أنام سبع ساعات، والدنيا قصيرة، فعليّ ألا أنام إلا ساعتين أو ثلاث ساعات، حتى أتقي الله حق تقاته، فتأتي هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فتكون مبينة للأولى؛ نعم قال سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ولكن قال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، أي دون أن يكون الأمر خارج نطاق الاستطاعة.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، هذه ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قريبة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا...﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ التقوى هنا أصبحت أساسًا، مثلاً إذا رأيتك يا خليل تتكلم ولكن جرت في الكلام، قبل أن أقول لك: لا تجر في الكلام، أو أقول لك: قل قولاً سديداً، الأساس والقاعدة التي يُمكن من خلالها الانطلاق إلى أي توجيه شرعي آخر هي: "اتق الله" أولاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾،

أول شيء: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذه "اتق الله" تُعرف كأنها الجذبة، رأيت الإنسان الغافل، الذي تريد أن توجهه في قضية معينة، تقول له أولاً: "اتق الله" كأنك تجره وتجذبه: اتق الله! انتبه، فحين ينتبه تقول له: "قل قولاً سديداً"، اتق الله لا تفرط في صلاتك، اتق الله وغضّ البصر، وهكذا...

فـ "اتق الله" هذه تكون في البداية؛ لتنبيه الإنسان وتحذيره، ومن لا يزعه قول: "اتق الله" فهذا معناه أنّ في إيمانه خللاً واضحاً، ومن كان يستمر في الإثم بل وتأخذه العزة بالإثم وإن ذُكر بالله وقيل له: "اتق الله"! فهذه من سمات المنافقين -نسأل الله العافية-.

آيات فضل التقوى:

- ﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [الطلاق: ٢، ٣].
- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

هذه آياتٌ في فضل التقوى، تجعل الإنسان يحرص غاية الحرص على الابتعاد عن الذنوب والمعاصي؛ لأن الإنسان أحياناً عندما يريد التَّقرب إلى الله، لا يأتي في بابه التقرب إليه بالكفِّ عمّا يسخطه، وإنما بأن يأتي ما يحب ربه.

لكن اعلم أنه من أعظم ما يُتقرب به إلى الله: التقرب إليه بالكفِّ عمّا يكره، فأن تغض البصر مثلاً، هذه قرينة عظيمة إلى الله سبحانه وتعالى، ليس فقط أنه أمرُك بأن تغض البصر، وإنما حين تفعل هذا الأمر فأنت تأتي بالواجب، وفي نفس الوقت أرايت هذه الثمرات التي يخبر الله عنها للمتقين؛ هي تتحقق لمن يفعل مثل ذلك؛ لأن هذه هي التقوى.

الحديث الأول:

ثم قال -رحمه الله تعالى-:

٦٩/١ - وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَالْأَوَّلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: "أَتْقَاهُمْ"، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ، قَالَ: "فَيُؤَسِّفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ". قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ، قَالَ: "فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا" متفقٌ عليه.

قال النووي -رحمه الله-: و"فَقَّهُوا" بِضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَحُكِيَ كَسْرُهَا، أَي: عَلِمُوا أَحْكَامَ الشَّرْعِ.

هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، وهو يصنّف في فضل التقوى. أكرم الناس هنا ليس المقصود منه الأكثر إنفاقاً؛ أي الكرم الذي ضده البخل، لا، بل الأكرم الذي هو الأنفس، الأعلى، والأعلى، والأثمن، والأكرم منزلةً ومكانةً، وهذا من الاستعمالات المعروفة عند العرب، يقول لك: هذا من كرائم الأموال، "... فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ..." [البخاري: ١٤٩٦] أي المال العالي النفيس.

"مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟" من أعلاهم منزلة؟ من أفضلهم؟ السؤال كان متوجهاً من الصحابة، يسألون عن كرم المنزلة المتعلقة بالنسب والحسب، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ يا رسول الله؟

يعني كأنهم كانوا ينتظرون أن يقول النبي ﷺ مثلاً: قريش، أو غيرها من قبائل العرب، كلُّ بحسب ما هو متوقع، فنقل النبي ﷺ اهتمامهم هنا إلى قضية التقوى، وهذا أسلوب نبوي. ونحن قلنا في هذه السلسلة: إن من أهم الأشياء التي نريد أن نتبعها: (بوصلة الهدي النبوي)، وهذا من الأساليب النبوية: أن يأتي شخص عنده قضية معينة، يريد أن يسأل عنها لاهتمامه بها، فأنت تصرف اهتمامه إلى معنى آخر مرتبط بنفس القضية التي يسأل عنها، وهو أولى أن يهتم به.

مثلاً:

- لما سأل الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟" [البخاري: ٧١٥٣]

- وقوم آخرون سألوا النبي ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فيقول: "إِنْ يَعِشْ هَذَا لَا يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ" [البخاري: ٦٥١١].

هم سألوا عن الساعة العظمى، وهو ﷺ أرشدهم إلى الاهتمام بالساعة الصغرى؛ التي هي الموت، يعني هذا هو الذي يعينكم، أما الساعة العظمى متى موعدها؟ هذا عند الله، لا شأن لكم في هذه القضية، ليس من اهتمامكم الذي ينبغي أن تهتموا به موعد الساعة العظمى، لكن من الاهتمام الذي ينبغي أن تهتموا به هو ساعتكم الصغرى.

- والأمر نفسه هنا لما قيل: "يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: "أَتْقَاهُمْ"، النبي ﷺ عندما سُئِلَ: من أَكْرَمُ النَّاسِ؟ هو يعرف قصدهم، يعني لما قال: "أَتْقَاهُمْ" ليس لأن النبي ﷺ لم يفهم المقصود، لا؛ بل لأنه عدل بهم عن المقصود الذي يريدون إلى المقصود الذي ينبغي أن يسألوا عنه، فقال ﷺ: "أَتْقَاهُمْ" وفي رواية: "أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ".

فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: "فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ"،
يعني تريدون أن تسألوني عن أكرم الناس نسبًا؟ هو يوسف، لماذا؟ لأنه نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ
ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، أنتم الآن أيها السائلون عندكم الأحساب والأنساب وتعجبكم أنسابكم العربية، من
منكم يأتي بحسبٍ وبنسبٍ كهذا؟ أن يكون نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ! مَنْ مِنْ
العرب منكم أيها السائلون عنده هذا النسب؟ لا يوجد.

وهذا أيضًا لفت انتباه من النبي ﷺ إلى زاوية أخرى غير الزاوية التي يسألون عنها، وإن كان اقترب هنا،
فالنبي ﷺ لامس قضية النسب لكن عن غير التي يسألون، هم لم يكن قصدهم فيما مضى، ولا كان
قصدهم الأنبياء ونسب الأنبياء، هم قصدهم معادن العرب، وهو يعرف ذلك ﷺ، ولكنه ﷺ أيضًا
يعيد تصحيح المعايير، فيقول أكرم الناس يوسف؛ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ.

● أصالة المعدن في الإنسان:

قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: "فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟" هنا السياق كأنه يقول: أهذا
الذي تريدون؟ عن معادن العرب تسألوني؟ ومع ذلك لم يجب النبي ﷺ الجواب الضيق الذي ربما كان
يريده بعضهم أو يريدونه، وإنما أجابهم جوابًا في قاعدة عامة عظيمة جدًا، ليست في التفضيل المطلق
المتعلق بأنساب معينة، وإنما قال في جملة عظيمة: "خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا
فَقَّهُوا"، يعني مرحلة الجاهلية فيها تفاوت، فيها من الأخلاق الحسنة، من الأخلاق الحميدة، فيها أناس
عندهم خصال معيّنة من الخير، أولئك الذين كانوا في الجاهلية من الخيار هؤلاء هم الخيار في الإسلام
أيضًا، وكأن النبي ﷺ يتحدث عن أصالة المعدن للإنسان؛ فالخُرُّ، الشريف، الكريم، العفيف، الصادق
الذي كان في الجاهلية هو كذلك سيكون خَيْرًا في الإسلام، وبالعكس ذلك، قد يكون الإنسان لثيمًا في
الجاهلية لثيمًا في الإسلام، نعم هو شَرُفٌ بالإسلام بلا شك، ولكن إذا كان القصد عن الكرم الذي
هو النفاسة وجوهر الإنسان، فقد يكون الإنسان فيه لؤمٌ في جاهليته وفيه لؤمٌ في إسلامه، يعني اللؤم
مستحكمٌ فيه، والبعض بعكس ذلك؛ الخيرية مُستحكمة فيه، والكرم مستحكم فيه، في جاهليته وفي
إسلامه، فالناس معادن، الناس ليسوا سواءً.

● الفقه في الدين شرط لظهور الخيرية:

نحن الآن نريد أن نركّز على جملةٍ مهمةٍ وهي: "إِذَا فَقَّهُوا"، تركيزًا نعطيه قدرًا من الأهمية.

"إِذَا فَقَّهُوا" ما التقيد الذي حدث فيها؟ يعني إذا لم يفقهوا ولو كانوا خيارًا في الجاهلية، وعندهم نفس الخيرية التي في الجاهلية، فلن يكونوا الأخير في الإسلام إلا إذا فقهوا، فإذا لم يفقهوا أو يتفقهوا سيقون على أصلٍ من أصول الخيرية، لكنه لن يكون كاملاً.

أنا أتخيلها مثل تفاعل المواد في الكيمياء؛ هناك معدن أو مادة أو عنصر قابل للتفاعل، فيه شيءٌ كامن، لكنه يحتاج إلى أن يُخلط بشيءٍ آخر، فإذا خُلط بشيءٍ آخر سيحدث هذا التفاعل.

هكذا الناس: هناك معدن خيرية، لكنه يحتاج إلى شيءٍ يُخرج هذا المعدن، ويزكّيه، وينميه، ويجعله يتفاعل وينتشر، ما هو هذا الخليط؟ الفقه في الدين.

● لا نميز للموهوبين دون التفقه في الدين:

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها:

ما كنا نتكلم عنه قبل قليل، هناك أناس لديهم قدرات وخصال استثنائية، لديهم تميّز استثنائي، يطلق الناس الآن على مثل هؤلاء اسم الموهوبين، وأحيانًا اسم القادة، من الناس من شخصياتهم أصلًا من الله هكذا، هؤلاء أحوج الناس إلى الفقه في الدين؛ لأن هذا الفقه في الدين يوجّه هذه الخيرية، ويُنمّيها. وأكثر من تفوح رائحة زكائه هو الذي فيه الخيرية الكامنة هذه، إذا سلّط عليها الفقه في الدين.

فمن عنده رعاية موهوبين، ورعاية قادة... بدون الفقه في الدين؛ فمشروعه مهما بذل له فهو مشروع ناقص، وبالعكس ذلك؛ إذا كان عندك أناس من الخيار، ومن الموهوبين، ومن ذوي الكرم والحسب، ومن ذوي الصفات الحميدة، فأولى من ينبغي أن يوجّه إليهم التفقيه وتعليم الدين هم هؤلاء.

المقصود بالفقه في هذا الحديث:

الرسول ﷺ قال: "إِذَا فَقَّهُوا"، والفقه هنا لا تظنوا أنه هو الفقه الاصطلاحي في العلوم الشرعية فقط، "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ..." [البخاري: ٣١١٦]، هذا أبدًا لا يختص بقضية علم

الفقه في التراث الإسلامي، "خيارُهم في الجاهليّة خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا" وهذا أبداً لا يختص بقضية الفقه وإن كان داخلاً فيه، الفقه في الدين يشمل ما يتعلق بالدين عمومًا؛ في الاعتقاد، وفي الآداب، وفي التزكية، وفي السلوك، وفي فقه الأحكام العملية وغير ذلك...

فلا تَمَيِّزَ للموهوبين بلا فقهٍ في الدين، ولا تَمَيِّزَ للقادة بلا فقهٍ في الدين، وهذه قاعدة عظيمة جدًا: "خيارُهم في الجاهليّة خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا".

الحديث الثاني:

٧٠/٢ - الثاني: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ" رواه مسلم.

هذا الحديث من جملة الأحاديث التي تُعرِّف الإنسان المسلم ببعض الحقائق المحيطة به، الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان، خلق ما حوله من الزينة والحياة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا...﴾ [الكهف: ٧] وهذا الإبصار لما حول الإنسان يُدرك بالبصر الحسي.

الدين يعطينا البصيرة:

ميزة الدين والوحي: أنه أتى لإضافة البصيرة المعنوية، أنت تبصر هذه الدنيا وترى زينتها، فتأتي الشريعة لتُضيف لها تعريفاتٍ أخرى.

عندما تبصر شيئاً من زينة الدنيا ففي الأساس الفطري تكون علاقتك بها علاقة رغبة واندفاع، وليست علاقة حذر، وهذا الطبيعي الذي يدركه كل الناس. فالوحي لا يقول لك: هذه الرغبة خطأ، لكن يضيف لها تحذيراً، فيقول لك: "فَاتَّقُوا الدُّنْيَا"، ونحن نعلم بمجموع النصوص أن "فَاتَّقُوا الدُّنْيَا" ليس معناها ابتعدوا عن الدنيا، ولا تستمتعوا بشيءٍ من أمور الدنيا، ولكن "اتق الدنيا": أي احذر أن تُسقطك هذه الدنيا، احذر أن تأسرك هذه الدنيا...

وهذه ميزة عظيمة في الاستنارة بنور الوحي، أن أنوار الوحي تضيف إلى المعنى الطبيعي الذي بين الإنسان وبين ما حوله من أمور الحياة؛ تُضيف له التعريفات التوجيهية المتصلة بأنوار الوحي، فتجعل الإنسان يهتدي في سيره.

لا تتهاون في تحذير النبي ﷺ:

"فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"، هذا الخطاب للرجال: اتقوا النساء، وهي من الفتن التي خشيها النبي ﷺ على رجال أُمته، ولا شك أن الإنسان المؤمن المُحب لرسول الله ﷺ حقًا يتعد عمًا حذرًا، ويضع حساسيةً وتنبيهًا لما أراد النبي ﷺ أن يبقى محلَّ حساسيةٍ وانتباه في قلوب أُمته، ومما حرص النبي ﷺ على أن يبقى هكذا في قلوب رجال أُمته تحديدًا هو: الحذر من فتنة النساء. لا تتهاون في هذه القضية، لا تتهاون في هذه الفتنة، هذا ما أراده النبي ﷺ أن يكون من رجال أُمته؛ أن يتقوا هذه الفتنة.

الحديث الثالث:

٧١/٣ - الثالث: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى" رواه مسلم.

في التصنيف الموضوعي للآيات والأحاديث المتعلقة بالتقوى -الذي قلناه في البداية-، نصنف هذا الحديث تحت عنوان: كيف نحقق التقوى، ما وسائل تحقيق التقوى.

فمن هذه الوسائل: الدعاء، التقوى تُستجلب بالدعاء، ومن جملة الأدلة على ذلك هذا الحديث الصحيح الذي كان النبي ﷺ يدعو فيه بهذه الدعوة.

الحديث الرابع:

٧٢/٤- الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي طَرِيفٍ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتَقَى لِلَّهِ مِنْهَا فَلْيَأْتِ التَّقْوَى" رواه مسلم.

معنى الحديث:

مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ؛ بِأَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا أَوْ لَا يَفْعَلَ شَيْئًا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْأَتَقَى لِلَّهِ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي حَلَفَ لَا يَفْعَلُهُ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ هَذِهِ الْيَمِينَ وَمُقْتَضَى هَذِهِ الْيَمِينِ، وَتُكْفِرَ عَنْ هَذِهِ الْيَمِينِ، وَتَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي حَلَفْتَ لَا تَفْعَلُهُ.

مثلاً: أخوان تخاصما، أحدهما ظلم الآخر ظلماً شديداً، فقال المظلوم للظالم: أقسم بالله العظيم أنني لن أكلّمك إلى أن تموت. فما الأتقى لله هنا؟ أن يكلمه ويكفر عن يمينه. هذا معنى الحديث.

الحديث الخامس:

٧٣/٥- الْخَامِسُ: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ صُدَيْ بْنِ عَجْلَانَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: "اتَّقُوا اللَّهَ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أَمْرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ" رواه التِّرْمِذِيُّ فِي آخِرِ كِتَابِ الصَّلَاةِ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فائدة حديثية:

هذا الحديث أخرجه الترمذي من طريق زيد بن الحُبَاب، عن معاوية بن صالح، عن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، إِسْنَادٌ هَذَا الْحَدِيثُ جَيِّدٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ صَحَّحَهُ، وَنَحْنُ قُلْنَا: غَالِبًا إِذَا صَحَّحَ التِّرْمِذِيُّ الْحَدِيثَ يَكُونُ صَحِيحًا.

هذا الحديث في الأمور الأساسية: "اتَّقُوا اللَّهَ" وهذا هو الأساس والقاعدة.

ثم بعدها: "وَصَلُّوا حَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أَمْرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ".

طاعة الأئمة والأمراء: وهذا الحديث فيه من الأمور الزائدة هنا: أن طاعة الأمراء المُعَيَّنِينَ من أئمة المسلمين -ويدخل فيها أصلاً بهذا الإجمال أئمة المسلمين أنفسهم- من تقوى الله سبحانه وتعالى، وهذه الطاعة من مجموع النصوص مقيّدة بأمرين:

(١) الأمر الأول: أنها لا تكون في معصية الله، وهذه قاعدة مُحْكَمَةٌ في الشريعة وواضحة: "لا طاعةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ" [أخرجه البغوي في شرح السنة: ٢٤٥٥]، ومن يقول: طاعة الأمراء من تقوى الله ولو أمروا بمعصية الله!، فهو مُخَالِفٌ لشرع الله ومُحَرِّفٌ لدين الله؛ فطاعة الأمراء تكون فيما لا يتعارض مع شرع الله، هذا القيد الأول.

(٢) القيد الثاني: أن طاعة الأمراء المأمور بها والتي هي من تقوى الله، هي ما كان تحت مظلة الشريعة عموماً، أي الأمراء الذين يحكمون بالإسلام، ويقودون أمة الإسلام، فإن طاعتهم من تقوى الله.

لا يصلح أن تذهب وتُخرج السيف وتُقاتِلَ إن لم يُعجبك شيء من أعمال السلطان، أو لأنك ترى أن هناك من هو أصلح منه، أو لأنه عمل بعض الذنوب والمعاصي!

طالما توفّر فيه هذان القيدان وهذان الشرطان المهمان جداً:

(١) الأول: ألا يكون أمره لك فيه معصية.

(٢) الثاني: أن تكون منظومة الإمارة هذه هي منظومة ضمن الشريعة الإسلامية، ضمن الحكم بالإسلام، ضمن تطبيق الإسلام، ولو كان فيها بعض الأخطاء، أما أن تكون منظومة غير إسلامية؛ فهي غير داخلية في هذا النص، والتعامل معها يكون بطريقة أخرى.

لكن هنا الآن فيما يتعلق بالحديث لماذا نذكر هذين القيدين؟

لأنه من تحريف الدين -وهذا يحصل- أن يظن الإنسان أن الطاعة هي مرتبطة باسم (الإمارة)، فما دام أنه أمير إذن تجب الطاعة، لا، هي ليست مرتبطةً باسم الإمارة فحسب، هي مرتبطة باسم الإمارة التي هي تحت اسم الحكم بالإسلام، فهذه قضية من المهم أن يُتنبّه لها.

ونسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد، وصلِّ اللهم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين